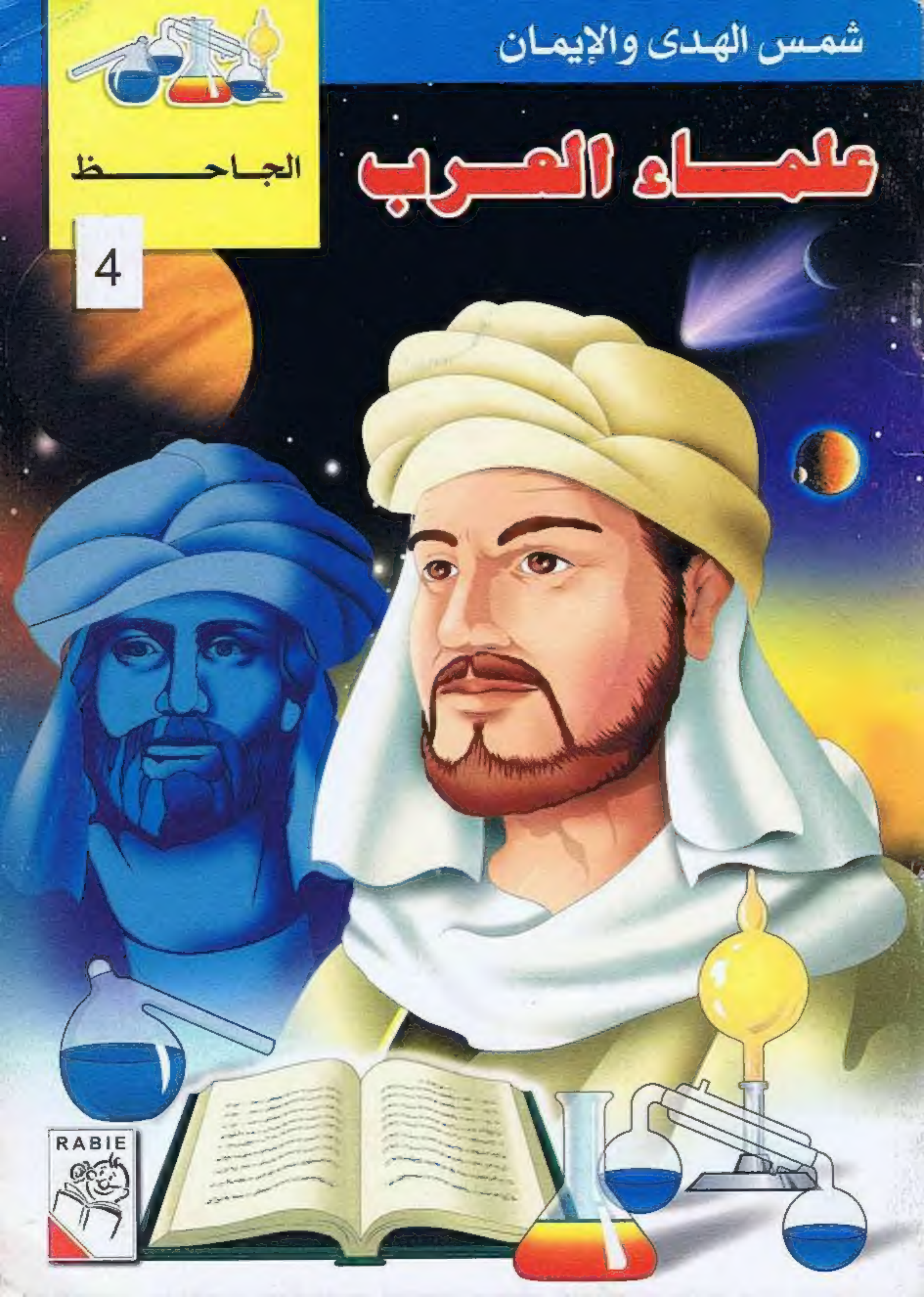


شمس الهدى والإيمان

الجاهظ

علماء العرب

4



الهدى والإيمان

علماء العرب

1 - 16 جزءاً

الجاحظ

تأليف

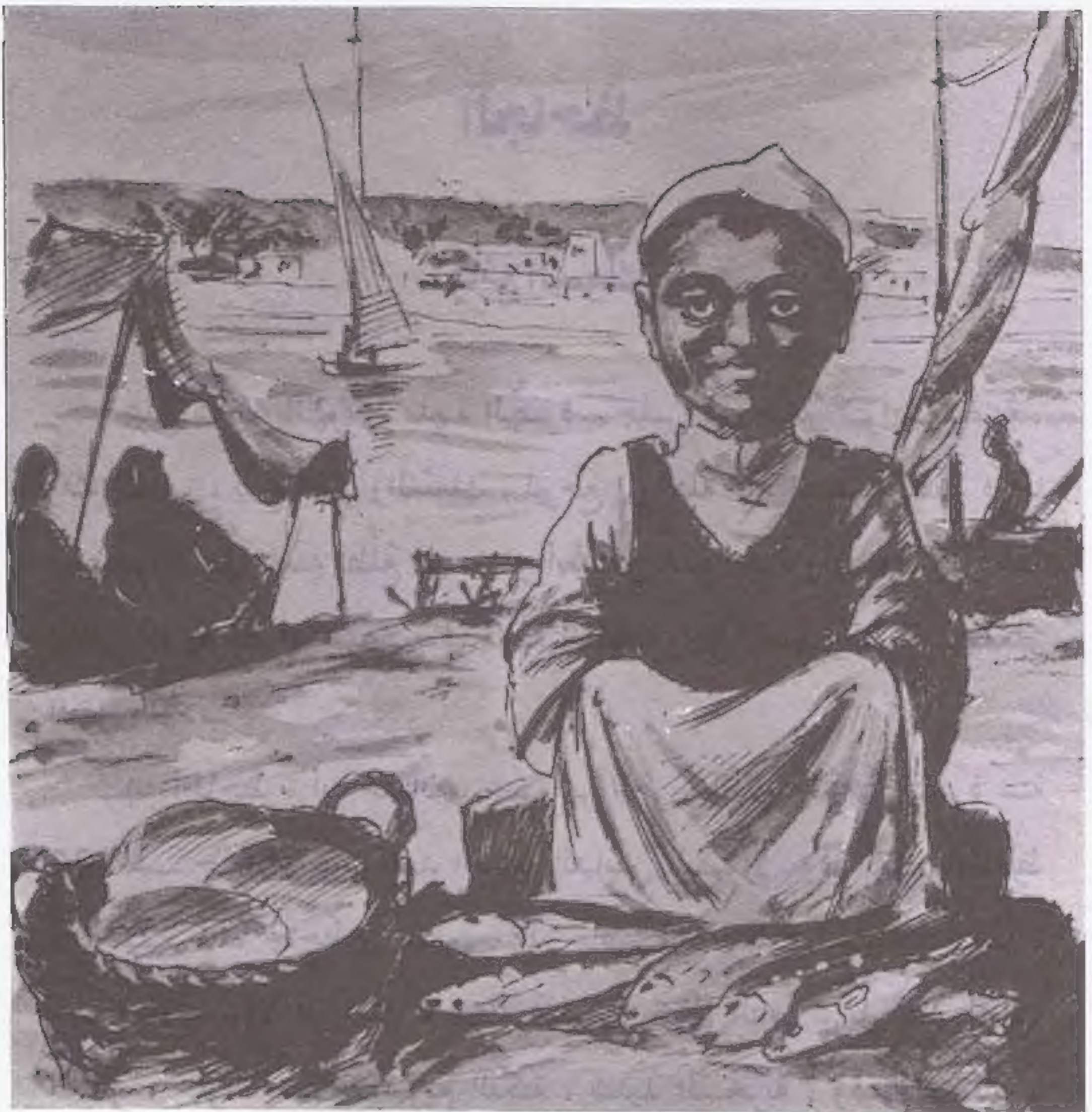
محمد كمال

الجاحظ

بائع السمك

على شاطئ النهر في مدينة البصرة ، جلس فتى صغير متواضع الهيئة ، رث الثياب ، يبيع الخبز والسمك ، ليرجع إلى أهله عند العصر بالنقود فرحاً مستبشراً ، وفي نفسه تطلّع إلى ما هو أبعد من هذه الحياة وأوسع ، وأنى لهذا الطفل أن يعرف أنه سيصبح في مستقبل أيامه رجل العلم والثقافة ، ومعلم العقل والأدب .

إنه الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، الذي ولد في البصرة سنة 163 هـ - 780 م في عهد الخليفة العباسي المنصور . وقد لُقّب بالجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين ناتئتين ، إلى جانب قبح منظره ، وتشوّه خلقته ، وسواد لونه . إلا أن ذلك لم يجعله انطوائياً يعتزل الناس ، بل كان لطيف المعشر ، حلو الحديث ، سريع النكتة ، شديد السخرية ، وفياً لأصدقائه ، مقبلاً على الحياة ، يحترم العقل ويُجلّه ، وهذه الخلال الكريمة أهّلته لأن يكون فيما بعد ذا مكانة عالية عند الخلفاء والوزراء وذوي الشأن والسلطان .



نأشأ الجاحظ يتيماً الأب ، فلم تشأ أمه أن تحرمه فضيلة العلم ، وهي
 تلمح فيه أمارات الذكاء وعلائم النباهة ، فأدخلته الكتاب ليتعلم القراءة
 والكتابة .

وكان في طريقه يلذُّ له أن يعدو وراء الحشرات أو الكلاب أو الفراشات ، يراقبها ويدقق النظر إليها ، ويقلد أصواتها ، محاولاً أن يكتشف طبائعها وعاداتها في حركتها وسكونها ، وطعامها وشرابها ، وغير ذلك مما خصها الله تعالى به ، وأفردها عن غيرها من مخلوقاته .

الخطوات الأولى

بدأ عقل الجاحظ يزداد تفتحاً مع الزمن ، وتنامى في نفسه الرغبة إلى اكتساب المزيد من معارف عصره وعلوم زمانه ، فأخذ يرتاد مجالس العلماء في المساجد ، ويتحرى حلقات أهل الجدل والفلسفة ، وينتهر الفرصة بين الحين والحين ، فيخرج إلى ظاهر البصرة حيث تقع سوق (المربد) وهي سوق أنشئت لتكون ملتقى الأدباء والشعراء ، ورجال النحو واللغة ، يتناشدون فيها أعذب القصائد وأروع الأشعار ، والناس حولهم يسمعون ويحفظون ، ثم يرجعون وقد نهلوا من ينابيع الفصاحة والبيان ، وأغنوا عقولهم بما كان يُروى في هذه السوق من أيام العرب ، وأخبار القبائل وسير الشعراء .

ثم أقبل الجاحظ على شراء الكتب وأدخارها بما كان يتيسر له من مال قليل ، فلم ير أصدقائه من أحب الكتب والعلوم أكثر منه ، فلا يقع في يده كتاب إلا قرأه من أوله إلى آخره ، حتى إنه كان أحياناً يستأجر مكتبة بما فيها من الكتب ، ويبيت ليلته مكباً عليها ، يحيل طرفه فيها ، ويلتقط منها الفوائد

القيّمة ، حتى إذا أقبل الصباحُ فمض متاثلاً ، وأعاد مفتاح المكتبة إلى صاحبها .

بشائر المجد

لما بلغ الجاحظُ الثلاثين من عمره ، كانت شهرته قد وصلت إلى مختلف مراكز العلم والثقافة ، كبغداد والكوفة ، إذ أصبح يؤمّه طلابُ العلم ، يتحلّقون حوله ويكتبون ما يملي عليهم من معارفه الواسعة وأبحاثه القيّمة ، ويتزودون من آرائه الشخصية ونظراته الخاصة التي تدل على حُسن دراية وعمق تفكير . وكانت هذه الأُمالي التي كان يملّيها ينتسخها النُساخ ويوزعونها في البلاد ، فأصبح الجاحظ بذلك ميسور الحال ، يمتلك مالاً وفيراً وداراً مريحة ، قد خصص فيها غرفة للكتابة والمطالعة .

وفي عام 204 هـ انتقل الجاحظ إلى بغداد مدينة العلم والمعرفة ، حيث تلقى فيها التيارات الثقافية العربية التي عرفت كيف تأخذ وتعطي ، مع المحافظة على شخصيتها المتميزة ، وأصالتها العريقة . وهناك في بغداد قصده الشعراء والأدباء ، وطلاب العلم والفلسفة ، يلقي عليهم دروسه ومحاضراته ، ويفتح أمامهم أبواب المناقشة والمناظرة ، وينتقل بهم في حدائق العلوم والمعارف ، فيجدون في دروسه الفائدة العقلية والمتعة النفسية ، إذ عُرف عنه أن كان كثير الاستطراد ، لا يقف عند موضوع واحد ، وغرضه من ذلك أن يظلّ الطالبُ مشدوداً إلى أستاذه ،

ملتزماً بدروسه ، لا ينتابه الملل والضجر ، وذلك هو المنهج التربوي
الرشيد .

في بلاط المأمون

كانت أخبار الجاحظ تبلغ مسامع المأمون ، ذلك الخليفة العالم الذي
أسس في بغداد نهضة علمية حضارية رائعة ، فكان يستقدم إلى بغداد كل من
يسمع به من فضلاء العلم والأدب ، ورجال اللغة وأهل الترجمة ، على
اختلاف مللهم ودياناتهم ، فيغدق عليهم الهبات ، ويشجعهم على الإنتاج ،
لأنه يعلم أن الدولة لا تقوم على الأجهزة السياسية والعسكرية فحسب ،
وإنما هي بحاجة إلى أجهزة ثقافية مبدعة ، تنهض بالمجتمع ، وتبني شخصية
الإنسان ، وتزيع عنه ظلام الجهالة وسحب الغفلة .

توثقت العلاقة بين المأمون والجاحظ بعد أن قرأ له كتاب (الإمامة)
فأعجب به ، فسارع المأمون إلى تكليف الجاحظ بمنصب رئاسة ديوان
الرسائل ، وهو منصب لا يحظى به إلا أصحاب المواهب النادرة في الأدب ،
ومن يحيطون بمختلف الثقافات ، ويحسنون التدبير في معالجة الأمور
السياسية .

غير أن الجاحظ لم يلبث في هذا المنصب أكثر من ثلاثة أيام ، فطلب إلى
الخليفة أن يعفيه منه ، لأن الوظيفة الحكومية قيد شديدة لا تطيقه نفس



ومما لا يخفى على من يتأمل هذه المواقف أن الحياة في مصر لم تكن تسير على نهجها المعتاد ، بل كانت في حالة
 من التذبذب والاضطراب ، وكان من شأن هذه المواقف أن تثير في نفوس المصريين مشاعر الغضب والاحتقان ،
 والجحظ المتحررة التي تأتي أن تلتزم بساعات عمل محدّدة ، وبنظام رسمي
 مفروض .

في بلاط المعتصم

في عام 218 هـ تولى الخلافة المعتصم أخو المأمون ، وكان بين وزير المعتصم محمد بن عبد الملك ابن الزيات وبين الجاحظ علاقة متينة وصداقة حميمة ، فقدّمه هذا الوزير إلى الخليفة ، وجعل له عنده مركزاً مرموقاً ، فكان الجاحظ يلتقي في بلاط الخلافة بكبار رجال الدولة وأفاضل العلماء ، يأنسون به ، ويعجبون بطيب خصاله ولطف معشره وطرافة حديثه .

والمعروف عن المعتصم أنه استعان بالعناصر التركية ، ووثق بهم كل الثقة ، فجعل منهم قواداً وحرساً يحيطون به ويدافعون عنه ، وإن أدى ذلك إلى ارتفاع أصوات الشعب ناقلين مستكرين . ولكن الجاحظ مع ذلك ألف كتاباً في مناقب الترك وعامة جند الخلافة .

ثم مات المعتصم وخلفه ابنه الواثق ، فظل ابن الزيات في منصب الوزارة ، وظل الجاحظ من المقربين إلى الخليفة والوزير ، وهو يزداد مع الأيام ثراءً ومجداً ، حتى سأله أحد أصدقائه :

- كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فأجابه الجاحظ :
- حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلوات إليّ ، وآكل من لحم الطير أسمّنها ، وألبس من الثياب أفخرها .
- ولكن ماذا تخبئ الأيام للجاحظ ؟ وهل دام له هذا النعيم الذي هو فيه ؟

محنة الجاحظ

بعد انتقال الواثق إلى رحمة ربه ، تولى المتوكل مقاليد الخلافة ، وسرعان ما أبعده ابن الزيات عن الوزارة ، وأمر بإدخاله إلى ثُور فيه مساميرٌ حمّاءة ، فعُذّب به حتى مات ، ونُصّب مكانه وزيراً جديداً هو أحمد بن أبي دؤاد . فأحسّ الجاحظ ، وقد قُتل صديقه ، بالخطر المنتظر ، فولى هارباً في جنح الليل إلى البصرة ، فقيل له : لِمَ هربت ؟ فقال متندراً :

– خِفْتُ أَنْ أَكُونَ ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الثُّورِ .

ولكن ابن أبي دؤاد الوزير الجديد أمر بإحضار الجاحظ مقيّد الرجلين ، مغلول العُنُق بسلسلةٍ من الحديد .

ولما وصل الجاحظ إلى بغداد بشيابه الممزقة وحالته الزرّية ، نظر إليه ابن أبي دؤاد غاضباً وقال له :

– وَاللّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا مُتَنَاسِياً لِلنِّعْمَةِ ، كَفُوراً لِلصَّنِيعَةِ ، مَعْدِناً لِلْمَسَاوِي .. فرفع الجاحظ رأسه ، وجمع ما لديه من ذكاء وبلاغة وقال :

– خَفِّضْ عَلَيْكَ أَيْدِكَ اللَّهُ ، فَوَاللّهِ لَأَنْ يَكُونَ لَكَ الْأَمْرُ عَلَيَّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَيْكَ ، وَلَأَنْ أَسِيءَ وَتَحْسَنَ أَحْسَنُ فِي الْأَحْدُوثةِ عَنْكَ مِنْ أَنْ أَحْسَنَ فَتَسِيءَ ، وَلَأَنْ تَعْفُو عَنِّي فِي حَالِ قُدْرَتِكَ أَجْمَلُ بِكَ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنِّي .
فما كان من الوزير وقد أعجبه هذا الجواب إلا أن قال له : قَبْحُكَ اللَّهُ ، فَوَاللّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كَثِيرَ تَزْوِيقِ الْكَلَامِ . ثم عفا عنه وأدناه من مجلسه .



كتاب الحيوان

يمكن أن يُعدَّ كتابُ (الحيوان) من أوسع كتب الجاحظ العلمية ،
وأعظمها نفعاً وفائدة ، فقد استعرض فيه أنواع الحيوانات في البر والبحر

والجو ، ووقف عند طيائعها الجسمية والنفسية ، معتمداً في ذلك كله على التجربة والمعاينة والخبرة الخاصة ، شاقاً لنفسه طريقاً في البحث العلمي يقوم على الشك الذي يؤدي إلى اليقين ، فيقول :

- اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة لها .

ثم إنه يردُّ على كثير من الأساطير والخرافات التي تفسّر سلوك الحيوانات وتصرفاتها ، ويرى أن هذه الخرافات إذا مزجت العلم أفسدته وأضرّت به ، فلا بُدَّ من الاعتماد على العقل ومقاييسه ، لأن الحواس كثيراً ما تكون خادعة مضلّة .

غير أن الكتاب لا يختصُّ بالحيوان فقط ، كما نرى في المؤلفات الحديثة ، وإنما هو موسوعة شاملة تتناثر في طيّاتها الأخبار التاريخية والأشعار المستملحة ، والفوائد اللغوية .

ولما استتمّت فصوله أهداه إلى الوزير محمد بن عبد الملك ابن الزيات .

كتاب البيان والتبيين

في كتاب (البيان والتبيين) تتجلى ثقافة الجاحظ الواسعة ، ومعرفته بأدب الأمم والشعوب ، واعتزازه بالتراث العربي ، فتراه يعرض على القارئ أقوال الفلاسفة اليونان والهنود ، وأخبار العرب ، ونماذج من خطبهم وروائع أشعارهم . ويقف عند عيوب اللسان ، كاللكنة والتمتمة . ويبين رأيه في

الفصاحة والبلاغة ، مستشهداً بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف ،
وكلام الحكماء والفصحاء والشعراء ، فهو حديقة فوّاحة ، يتنقل القارئ في
أرجائها ، فتمتّع بما اختاره الجاحظ بذوقه الرفيع من بدائع الحكم ، وروائع
الأخبار والأشعار . يقول الجاحظ :

- (وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر
لفظه ، وكان الله عزّ وجلّ قد ألبسه من الجلالة ، وغشّاه من نور الحكمة
على حسب نيّة صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظُ
بليغاً ، وكان صحيح الطّبع بعيداً عن الاستكراه ، منزّهاً عن الاختلال ،
مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة) .
وقد أهدى الجاحظ هذا الكتاب الثمين إلى الوزير أحمد بن أبي دؤاد .

كتاب البخلاء

ألف الجاحظ كتاب (البخلاء) في آخر أيامه ، فجمع فيه ما وصل إليه
من نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل ،
وما يجوز في باب الجد .

فهؤلاء البخلاء دفعتهم هذه الخصلة الذميمة إلى جمع المال وتثمينه ،
والاقتصاد في نفقته ولو على أنفسهم . كما يصف لنا فيه بعض الشرهين إلى
الطعام وصفاً حسياً تارة ونفسياً تارة أخرى ، حتى إنه لينزع الضحكة من

فم القارئ انتزاعاً ، وذلك حين يضعه أمام صورٍ واقعيةٍ حركيةٍ بارعةٍ تدفع
إلى التهكم والسخرية ، فهذا عليُّ الأسواريُّ :
- (كان إذا أكلَ ذهبَ عقله ، وجحظت عينه .. وتربَّد وجهه ، ولم
يسمع ولم يبصر .. ولم يفصلَ ثمرةً من ثمرة ، ولا رمى بنواة قطُّ ، ولا نزع
قُمعاً ، ولا نفى قشراً ، ولا فُتَّشه مخافة السوسِ والدود) .

الحنين إلى الأوطان

للجاحظ كتبَ ورسائلُ تكادُ لا تُحصى عدداً ، ولا يحاطُ بها تنوعاً ،
ومن بين هذه الرسائلِ الجليلةِ رسالةٌ في (الحنين إلى الأوطان) أوردَ فيها
الجاحظ من الأخبار والأشعار ما يدل على تمكُّن هذه العاطفة في نفس
الإنسان وتحكُّمها في ذاته ، فقد قال الله عز وجل حين ذكر الديار يخبر عن
مواقعها من قلوب عباده : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو
اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم ﴾ . فسوى بين قتلِ أنفسهم
وبين الخروج من ديارهم .
وقد قال أحدُ الشعراء :

لَقُرْبُ الدارِ في الإقْطارِ خَيْرٌ من العيشِ الموسعِ في اغْتِرابِ



فكاهة الجاحظ

كان الجاحظ صاحبَ أسلوب رفيع محبب ، يمتاز باليسر والسهولة
والبعد عن التكلف والتعقيد ، فلا يستعمل من الألفاظ إلا أرقها وأعذبها
وأكثرها تآلفاً وأنسجماً ، ولا من العبارات إلا أوضحها وأسلمها وأقربها

إلى المزاجية والتقابل ، وكان ذوقه الأدبي ينفر من التزمّت والتشدد ، ويميل إلى المرح والدُّعابة ، لأنه يرى أن الهزل شأنُ الجدِّ إذا وقع في موضعه ، ودعت إليه الضرورة ، ولهذا كان أدبه قريباً إلى النفس ، لا يُتعب القارئ ولا يبتعث فيه الملل . ففي كتبه من أخبار الحمقى والمغفلين وضعاف العقول نوادر وأقوال ، لم يتورّع الجاحظ عن تسجيلها في كتبه ، وإيرادها في مصنفاته ، تسليّة للقارئ وترويحاً له ، وإمعاناً في أن يكون أدبه واقعياً حياً ، يمتزج فيه الجدُّ بالهزل ، والوقار بالمرح ، فبذلك تتحقق مُتعة العقل والروح في آن واحد .

النجم الأفل

أصيب الجاحظ في آخر حياته بمرض الفالج ، فلزم بيته في البصرة ، يطالع الكتب ويستقبل بعض وجهاء العلم والسياسة . فكان يقول : اصطلحت على جسدي الأضداد ، إن أكلت بارداً أخذت برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذت برأسي . وأنا من جانبي الأيسر مفلوج ، فلو قُرِض بالمقاريض ما علمتُ به ، ومن جانبي الأيمن مُنْقَرِسٌ ، فلو مرَّ به الذباب لألمتُ ، وبى حصاة لا ينسرخ لي البول معها . وكان يردد :

أترجو أن تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشباب
لقد كذبتك نفسك ، ليس ثوبٌ دَرِيسٌ كالجديدِ من الثياب
إلى أن وافاه الأجل في سنة 255 هـ - 868 م بعد أن ترك في رحاب
الأدب دويّاً لا يزال يتردد صداؤه إلى الآن .

علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخر.



- 1 - جابر بن حيان
- 2 - زرياب
- 3 - الكندي
- 4 - الجاحظ
- 5 - أبو بكر السرازي
- 6 - الفارابي
- 7 - ابن سينا
- 8 - الحسن بن الهيثم
- 9 - البيروني
- 10 - ياقوت الحموي
- 11 - الشريف الإدريسي
- 12 - ابن الأثير
- 13 - ابن بطوطة
- 14 - ابن خلدون
- 15 - الجبرتي
- 16 - عبد الرحمن الكواكبي

تأليف: محمد كمال
الغلاف: هيثم فرحات

K1G1-16

جميع الحقوق محفوظة لدى دار ربيع للنشر ، لا يجوز الطبع أو النسخ
أو التصوير بأي شكل أو طريقة إلا بموافقة خطية من مالك الحقوق .
تم نشرها من قبل دار ربيع للنشر - حلب ، سوريا

RP © 2005 Rabie Children Books

All rights reserved , and no part of this publication may be
reproduced or transmitted in any form or by any means , electronic
or mechanical including photocopying recording or any other
retrieval system , without written permission of the rights owner .
Published by Rabie Publishing House - Aleppo , Syria
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com



6 214001 450779